***التفكيكـــية جاك دريدا***

جاك دريدا: ( 1930\_2004) فيلسوف فرنسي من أصل يهودي (ولد بالجزائر) مؤسس الفلسفة التفكيكية . من أهم مؤلفاته: الكتابة و الاختلاف, الصوت و الظاهرة.

***مدخل عام***:

لقد جاءت الحداثة النقدية لتعيد النظر في مختلف الخرائط النقدية السابقة عنها و نعني بذلك .التفكيكية ما هي إلا حركة نقدية حاول أصحابها اجتثاث تاريخانية النقد التقليدي في صورته الجافة إيمانا من منظريها أن المفاهيم التي تأسس عليها الخطاب الغربي و التي اكتسبت على مر التاريخ صبغة القداسة آن الأوان لمساءلتها و نقد أساسها الميتافيزيقي اللاهوتي بعيدا عن كل إجابة مريحة تخدع العقل بثقتها المزيفة بذاتها. و يعد جاك دريدا من أهم منظري التفكيكية و المؤسس الفعلي لها.

1\_ ***في ماهية التفكيك***:

يسعى التفكيك كفلسفة إستراتيجية و براعة في فحص النصوص و الموضوعات إلى كسب منطق الثنائيات الميتافيزيقية : داخل/ خارج, واقع /مثال , دال/ مدلول,...

و التفكيك الذي يمارسه دريدا لا يعني مطلقا الهدم و إنما الخلخلة .خلخلة كل المعاني التي تستمد منشأها من اللوغوس و بالخصوص معنى الحقيقة .

و يمكن فهم التفكيك على أنه تحليل لوحدة ما في مقابل البناء الذي يتمثل في إيجاد منظومة معقدة و بتنظيم بعض العناصر. و هو \_أي التفكيك\_ بالمعنى الجيولوجي للكلمة حفر للطبقات المترسبة و إزالتها من أجل الكشف عن الطبقات التحتية السابقة زمنيا, و التي غطيت منذ أمد بعيد, بل ظلت دوما مخفية. و هو على نحو أدق قراءة ثانية للخطابات و الأنظمة الفكرية قراءة لا تتم إلا من خلال خلخلة و تحليل عناصر الخطاب و أجزائه المكونة له و ذلك بهدف إدراك معانيه الخفية النائمة خلف الدوال, إنها قراءة تحولت إلى كتابة على أنقاض كتابة أخرى. و هي صورة إبداعية جديدة وفق رؤية مغايرة تستهدف الكشف عن المعاني الغائب ة.

و التفكيكية بهذا التصور هي تجاوز للمدلولات الثابتة عن طريق الخلخلة و اللعب الحر بالكلمات و هي تفتيت لشفرات الخطاب من أجل إعادة تشكيل ذلك الفتات في إبداع جديد وفق رؤية جديدة مغايرة. و هذا الإبداع أيضا هو عرضة للتشضي و التفكيك.

2***\_ الميتافيزيقا و المبدأ العقلاني:***

تتعلق الأسئلة التي تطرحها الميتافيزيقا بمسألة الوجود, المعرفة, الزمن, الفراغ, العلاقات السببية و الإرادة... و ما إلى ذلك . وللإجابة عن هذه الأسئلة دأبت الميتافيزيقا الغربية على البحث في الأمور الجوهرية , مثل الأسس و المبادئ , أو فكرة البحث عن **مركز**. تلك هي الأركان التي تقوم عليها عملية البحث و التقصي ,كان هذا هو الدافع وراء اختزال الحقيقة في مبدأ شامل. أو الرجوع بها إلى الأصل النهائي . يسمي دريدا هذه العملية : **المبدأ العقلاني**, ذلك المبدأ الذي لا يقبل التجزئة أو الانشطار, و الذي يدعو للعودة الى نقطة الأصل أو البداية , تعيد الميتافيزيقا من خلالها ترتيب العلاقة بين الحقيقة و العقل.

و هكذا بات الفكر الغربي يدور حول نقطة واحدة و وحيدة هي العقل. و كان هم دريدا في نظرته الإستراتيجيته فا**لتفكيك** هو نقض هذا **التمركز حول العقل** أو ما يسميه با**لمركزية العقلية** و ذلك لأنه ساهم في تقوقع الفكر الغربي و ف جموده حتى أنه أصبحا فكرا ساكنا جامدا,لا حركة فيه

و لأن العقليين قالو بأن الوجود حاضرا دائما, و هذا يعني بأن معناه و مفهومه و دلالته تكون هي الأخرى دائما حاضرة معه و تكون محددة و معروفة وفق أساس عقلي يؤمنون به. فإن دريدا قد دار على هذا الأساس العقلي الذي كانوا يتمركزون حوله ليقول بفكرة الغياب. غياب المعنى و ضياع الدلالة .

3\_ ***تفكيك ميتافيزيقا الحضور:***

تتأسس الميتافيزيقية الغربية في نظر دريدا على فكرة الحضور حيث أن معنى الوجود في الفكر الغربي بشكل عام يتم تحديده بعملية الحضور بالمعنى الحرفي للكلمة, مثال: حضور الشيء في مرمى النظر , الحضور كمادة ملموسة, كماهية أو كوجود, حضور مؤقت يتمثل في اللحظة الآنية , الحضور الذاتي للفكر أو الوعي ( أنا أفكر إذا أنا موجود ) , الحضور الآني للشيء, الحضور المشترك للذات و الأخر.....

تعود هذه الرؤية إلى مارتن هيدغر , الذي أكد بأن الفلسفة الغربية كانت دائما تقر بأن الشيء الموجود هو الشيء الأكثر حضورا من تلقاء نفسه. غير أن الانقلاب الذي حصل في صف الميتافيزيقا منذ هيدغر و منه انطلق جاك دريدا, هو القول بميتافيزيقا الغياب. لقد أخذ دريدا عن هيدغر قوله بفكرة الغياب من أجل بناء مفهوم أخر هو الأخر المغاير للأخر الغائب الذي ينتج من **الاختلاف** . و كان هيدغر قد أوضح أن : الانسحاب و التحجب لا ينفكان عن الوجود, ليس بمعنى أن الوجود ليس إلا انحجاب - إذ لا يمكن الشك في أن الوجود هو ما يظهر من تلقاء ذاته - بل بمعنى أن الظهور لا ينفك عن الغياب و الإنحجاب . إن الوجود ينتشر أي يحظر أمامنا و لكن بحيث يحجب عنا ماهيته , فليس للوجود ألفته مثلما للموجودات ألفتها, و ذلك ليس لأن الوجود يغيب و ينحجب تماما, إذ لو كان إنحجابه تماما لما بدت للموجودات أليفة أبدا و إنما لعجز الآنية (الموجود الإنساني) الإحاطة بشمول الوجود بسبب استغراقها من قبل الموجود الجزئي و هكذا يقرر هيدغار أن تاريخ الغياب و ليس الحضور.

و حسب فلسفة الحضور قد اقتصر مفهوم الأشياء و الموجودات فيما بينها بوصفها أشياء حاضرة مما جعل الحضور نفسه غير مدرك بدون **الاختلاف**, و من الممكن بشكل عام القول مع دريدا إنه ليس ثمة شيء يكون حاضرا ببساطة و كل ما يعتبره حاضرا معطى يعتمد لتحديد هويته على اختلافات و علاقات لا يمكن أن تكون حاضرة

إن **الاختلاف** في نظر دريدا أعمق من الوجود و الكينونة بحيث يكون التوقف عند حقيقة اكتشاف الوجود أمر صعب المنال لا يمكن تقبله. و قد قام دريدا بتشويه كلمة **اختلاف** التي تكتب باللغة الفرنسية العادية بهذه الطريقة différence أي بتعويض A بدل Eحيث قصد منها إبراز التعقيد الإشكالي للدلالة التي تعني عنده جدلية الحضور و الغياب فال (a) من différ-an-ce هي إشارة للتردد و اللايقين, فلا هذا ولا ذاك, فلا تنظيم ولا تحكم في ظل التعارض و التنافر.

لقد حاول **دريدا** أن يدفع بالوعي إلى تجاوز مبدأ الوحدة و ظاهرة تطابق الوعي مع مقولاته , من أجل تحقيق شيء من التحرر و التفرد و التميز و الخروج عن سلطة النمذجة و الاحتواء و التقوقع . و إذا ما توقف الدارس عند دلالة مصطلح الاختلاف اللغوية حسب ما ورد في المعاجم , حسب نظر **دريدا** يجدها لا تخرج عن إطار التأجيل و التغييب و الإرجاء و التشتت و البعثرة و الانتشار, الشيء الذي يساعد على تعدد المعاني و كثرة التأويلات و الدلالات. و هو هدف التفكيكين الأول من الخطاب و الكتابة.

إن معنى الحضور الكامل الذي تتأسس عليه الميتافيزيقا الغربية أمر مشكوك فيه في نظر **دريدا** من حيث أن الشيء لا يحضر إلا بالاعتماد على **الاختلافات** و العلاقات الخارجية بوسائط مرجعية أخرى و لما كانت هذه **الاختلافات** غير حاضرة ,فان هناك معنى غائب دائما و تأكيدا لذلك يورد دريدا مثال **السهم** : إن السهم المنطلق هو في أية لحظة من اللحظات حاضر في موقع معين و لكنه في الوقت نفسه ليس حاضرا في ذلك المكان بالذات ففي أية لحظة اخترناها من لحظات انطلاقه يكون متحرك باتجاه موقع ثان, و هكذا... لا بد من أن نأخذ بعين الاعتبار أن كل حضور إنما يعتمد في تحديده على **اختلافات** وعلاقات لا يمكن أن تكون حاضرة, و على هذا فإن الشيء يمكن أن يكون حاضرا و غائبا في الوقت ذاته.

و في هذا السياق يعيد جاك دريدا تصوره للزمان. فإذا كان الأثر(العمل الفني) يحيل إلى ماض مطلق فمعنى ذلك أنه يلزمنا بالتفكير في ماض لا يمكننا أن نفهمه في شكل الحضور المعدل كحاضر ماض و الحال أن الماضي ما دام يعني دائما حاضرا ماضيا, فإن الماضي المطلق الذي يظل باقيا داخل الأثر لم يعد يستحق اسم ماض.

إن التفسير الميتافيزيقي للزمان لا يعبر سوى عن مغالطات لا يمكن تقبلها لأن مثل هذا التفسير هو بمثابة إخراج الأشياء من زمانيتها أو صيرورتها الخارجية قصد إدخالها في زمانية الذات أين يتحقق الشعور بالامتلاك , و بالتالي فإن التعبير عنها أيضا بمفاهيم ثابتة هو عملية فاشلة ,لأنها تستبدل الزمن الخارجي للأشياء بالزمن الداخلي للذات. وهكذا يتعين في نظر دريدا هدم المفهوم الميتافيزيقي للزمان, الذي هو في الواقع هدم لفكرة الحضور داتها.

4\_ ***امتياز الصوت و انحطاط الكتابة:***

إن دريدا في إطار التفكير في اللامفكر فيه ضمن الفلسفة قد أوضح نوعية العلاقة القائمة دوما بين الحضور أو الوعي و **الصوت**. و هي علاقة لم يتفطن لها حتى هسرل نفسه, إن امتياز الحضور كوعي في نظر دريدا لا يتأسس إلا بواسطة سمو **الصوت** , إن امتياز الوعي و الحضور ليس سوى (إمكانية الصوت الحي ) . لماذا سمو الصوت ؟ لماذا نعلي من قيمة الصوت على حساب الكتابة ؟ و إذا كانت الفلسفة أساسا هي نوع من الكتابة فلماذا ننظر إلى الكتابة كأحد العوامل الفاسدة المعوقة ؟ إنها ضرورة الميتافيزيقا ؟ لأنه حين أتكلم أكون على وعي حاضر و متواصل مع أفكاري بل إنني أجسد هذه الأفكار على نحو ملموس أي على متن **الصوت** الذي تحمله أنفاسي الخارجة من أعماقي... إنني اسمع صوتي فور خروجه مباشرة, إنه يعتمد على تلقائيتي الحرة النقية و لا يتطلب وجود أية وسائل أو أدوات أو قوى من العالم الخارجي. إن الإنصات لكلام الذات هو علاقة مباشرة بالضرورة, بينما تتم الكتابة بطريقة تكون دائما مؤجلة و إذا ما أنصتت لذاتي في غياب العالم فمعنى ذلك أنني روح, معنى, حقيقة, خاصية مثالية ’ وكل هذه القيم التي تكون(أي تتحقق) , تضهر في نفس الوقت باعتبارها نسقا هو في حد ذاته نسق الميتافيزيقا.

لماذا هذه الروحية؟ لأن الصوت يبدو متحد مع أفكاري حتى إنه ينفي ذاته و يلغيها و يصبح مجرد مادة ناقلة شفافة ليسمح للأفكار و المفاهيم كي تفصح عن نفسها كما هي و من ثم لا تشير لأي شيء إلا حضورها هي . يعتبر الصوت مادة شفافة مجرد قناع نقي , نرى من خلاله وعينا الداخلي, يلتحم الصوت بالفكر لا شيء يفصل بينهما \_لا دخل لزمن أو العوامل الخارجية ليس هناك فجوة ما (مسافة) وهكذا تحقق الكلمات المنطوقة حضورها ووجودها و لا يتأتى هذا العمل للكتابة .

هناك إذا تضامن نسقي لمفاهيم مثل معنى, هوية, موضوعية ,حقيقة , حدس, إدراك, تغير..., و إن الغالب المشترك بينهما هو الوجود كحضور: تقارب مطلق للهوية مع الذات, و أهم نتيجة لهذا التضامن تتمثل في حصر الكتابة ضمن وظيفة ثانوية وآلية بحيث تكون مترجمة لحديث أصلي هو نفسه منفلت من عملية التأويل. و هكذا اعتبرت الكتابة مجرد تشويش للحقائق, ذلك أن الحقيقة التي تم نشدها تقوم على أفكار مجردة و قد رأى التقليد الغربي أن للكلمة وحدها القدرة على نقل الحقائق كما هي, فالفكر منذ نشأته يقوم على **مركزية الصوت**.

و لمواجهة الفكرة القائلة بمركزية الصوت يقوم دريدا بفحص الحجج التي تقول بأفضلية الكلام على الكتابة و قد توصل دريدا إلى أنه : إذا كان الكلام إطار للحضور و الهوية و الوحدة و البداهة, فإن الكتابة إطار للغياب و الاختلاف و التعدد و التباين و في ذلك نقض لمركزية الصوت.

و في هذا يؤكد دريدا على أن الكتابة أداة للكشف عن الذات الداخلية و الحقيقية التي لا تتبدى في الحضور بل في العلامات المكتوبة, إن العلامات المكتوبة تكمل ما تتركه العلامات المنطوقة من نقص و فراغات و هنا تعمل ثنائية " الحضور\_الغياب" عملها لانفتاح الدلالة اللانهائية وتحقيق المعنى الناقص . تعمل الكتابة وفق آلية الغياب و كما يقول **دريدا** إنها لا تحتاج حضور الكاتب أو حضور وعيه.

تبتعد علامات و رموز الكتابة و تنفصل عن كاتبها و لكنها تواصل إنتاج أثار تجاوز حضوره حتى بعد حياة الكاتب نفسه .

الكتابة تعني خلق علامات تتحول بدورها إلى نوع من الآلات أي تصبح وسائل للإنتاج, لن يحول غياب الكاتب نفسه دون عملها أو يمنع استمرارها في ذلك العمل.

***نقد و تقييم*** :

من خلال ما سبق ذكره يمكننا أن نصل إلى نتيجة مفادها أن جاك دريدا قد عمل على نقد و تقويض ميتافيزيقا الحضور التي وسمت تاريخ الفكر الغربي و كأنه بمنأى عنها و لكن دريدا رغم ثورته قد ظل أسيرا لمركزية الحضور خاضعا لسلطتها.

إن التفكيكية باعتبارها صيغة ل "نظرية النص" تخرب كل شيء في التقاليد و تشكك في الأفكار الموروثة عن العلامات و اللغة و النص و السياق و المؤلف و القارئ و دور التاريخ و عملية التفسير و أشكال الكتابة النقدية و هي بالإضافة إلى ذلك تضيع المعنى و تشتته, انطلاقا من فكرتها عن اللعب الحر بالكلمات و انفتاح الخطاب على المدلولات اللامتناهية .

و التفكيكية في تصور مؤسسها ذاته تفتقر إلى معايير الظبط المنهجي لأنها سرعان ما تعلن غياب ملامحها على المستوى الإجرائي في غمرة المناهج النقدية الأخرى, الشيء الذي يجعلها بمنأى عن إضفاء صفة الموصوف المنهجي عليها أما فيما يتعلق بفكرة أولوية الكينونة لما يدعى بالكتابة فهي فكرة بعيدة عن التماسك و ضعيفة و ذلك لأسبقية الصوت على الكتابة.

و مع ذلك تظل التفكيكية من أهم الحركات الفكرية المعاصرة و أكثر من أدرك إلى أي حد يعير المقال بوصفه بنية تتعلق بمستوى التحليل عن إرادة القوة و إرادة الإرادة.